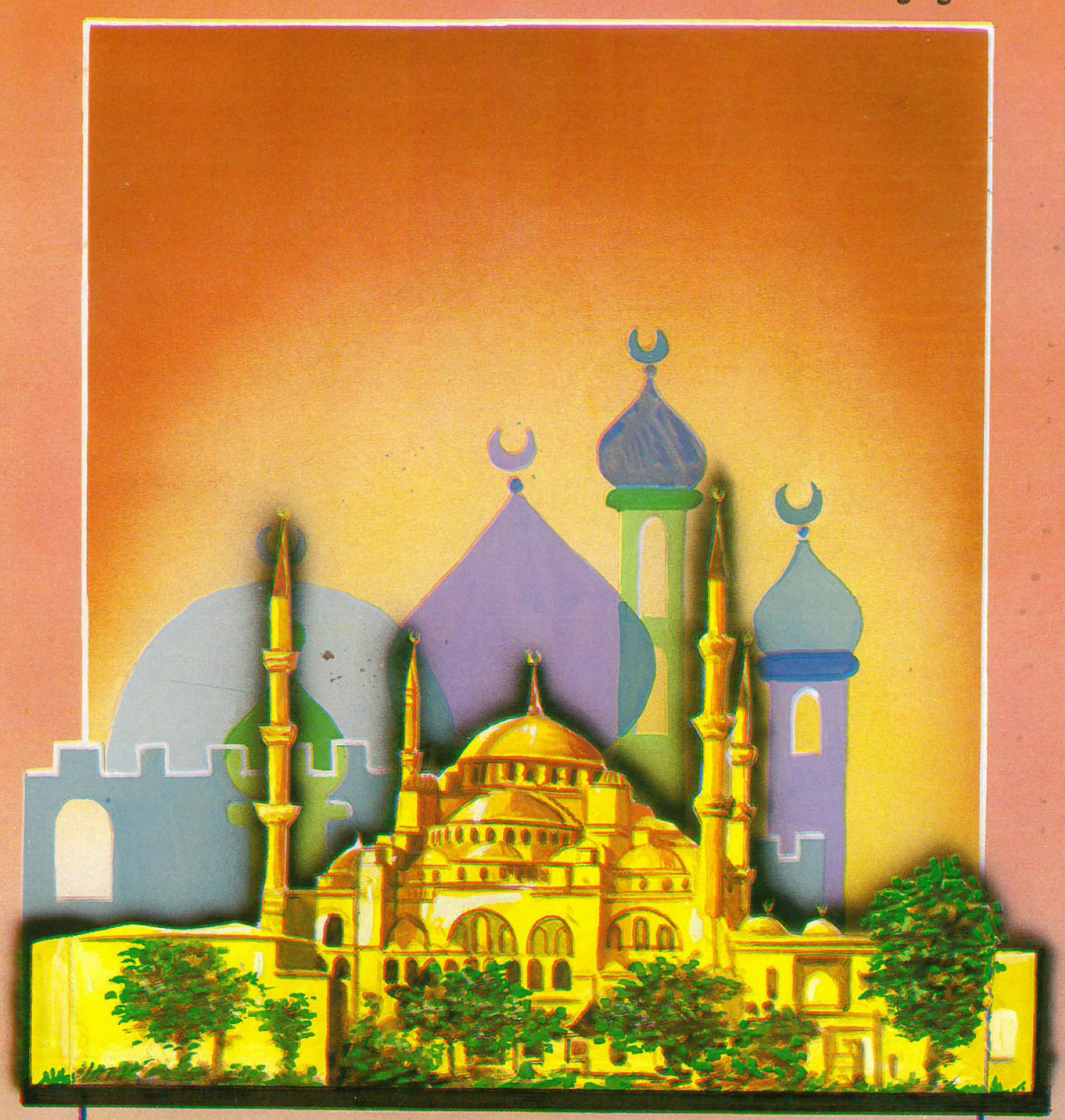
مدائن إسلامية (٧)
من سن ٨ : ١٢



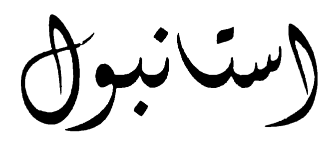
استانبول

ـمَد سويلم

سفير

مدائن إسلامية

(٧)



رسوم
سعيد عمرى

أحمد سويلم

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة. ص.ب: (٤٢٥) الدقى

صديقنا عبدالله أحد أبطال السباحة للناشئين .. إنه يجد متعة كبيرة وهو يقاوم الماء ويصل إلى نهاية السباق .. ويحصل على الجوائز المختلفة .

وهذا العام فاز عبدالله وفريقه فى مسابقة الناشئين .. وكانت الجائزة السفر مع أصدقائه الفائزين إلى استنابول بتركيا لمدة عشرة أيام .

ظل عبدالله ينتظر يوم السفر .. ويقضى وقته فى القراءة عن هذا البلد الذى له تاريخ طويل .

وأخذ يتصور نفسه وجهًا لوجه أمام هذا التاريخ العريق .. وهذه الآثار التى تملأ هذا البلد.

كانوا عشرة فتيان أحدهم عبدالله .. وهاهم يصلون إلى مطار استانبول فيجدون من يستقبلهم ويسلمهم برنامج الزيارة .. وكتيبًا صغيراً عن تركيا .

وبعد استراحة قصيرة فى الفندق .. يركب الجميع سيارة صغيرة ومعهم المرافق الذى يتحدث اللغة العربية بطلاقة .

رحب المرافق بالضيوف .. ثم بدأ يعرض لمحة تاريخية موجزة عن استانبول :

– يذكر التاريخ أنه كان فى موقع استانبول مدينة صغيرة تسمى بيزنطة .. تقع على سبعة تلال وتحدها المياه من ضلعيها .. حيث يمتد فى شمالها الغربى ميناء طويل مقوس يُسمى القرن الذهبى وإلى الجنوب الغربى يقع بحر مرمرة .. وبين البحرين يجرى مضيق البوسفور .

ثم استولى على هذه القرية الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول طمعًا فى موقعها الجغرافى الممتاز .. وأعلنها عاصمة له عام ٣٣٠م .

ويجمع قسطنطين مستشاريه وكبار مهندسيه ويتحاور معهم :

– هذه بيزنطة الساحرة .. العاصمة الجديدة للإمبراطورية .. وهذا هو الفتح العظيم والنصر الكبير .. فماذا ترون ؟


البحر الأسود
جورجيا
أرمينيا
إيران
بلغاريا
استانبول
مضيق البوسفور
بورصة
اليونان
بحر مرمرة
أنقرة
ازمير
العراق
سوريا
البحر المتوسط

ويطلب كبير مستشاريه الكلمة ليقول :

- سيدى الإمبراطور.. لقد آن الأوان ليصبح اسم هذه العاصمة القسطنطينية نسبة إليكم.

ويصيح الجميع ويهللون .

- موافقون .. موافقون .

ويطلب كبير المهندسين الكلمة ليقول :

- أرى يا مولاى أن العاصمة مهددة من كل جانب وأرى أن نقيم حولها سوراً حصيناً

وتظل مدينة القسطنطينية ألفًا ومائة عام عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وخط دفاع حصينًا لهذه الإمبراطورية .

ويأتى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) حيث كان يعيش فى مرتفعات الأناضول بعض قبائل من البدو الرحل يُعرفون بالترك .. وفى أحد الأيام كانت جماعة منها تجوب المكان القريب من أنقرة .. فشاهدت معركة تدور فى سهولها بين فئتين .. فتقدمت هذه الجماعة وناصرت الفئة الضعيفة حتى انتصرت .

ولحسن الحظ كانت هذه الفئة تتبع السلطان السلجوقى «علاء الدين الكبير» .. فأراد أن يكافئ مقاتلى عشيرة «قايى» التى كان يقودها أرطغرل بك .. والتى تسببت فى انتصاره .

قال السلطان السلجوقى لأرطغرل :

- أشكر لكم ما بذلتموه من أجلنا .. ومن واجبنا أن نكافئكم .

قال أرطغرل : إن ما فعلناه هو الواجب يا سيدى .

فكافأهم السلطان بأن منحهم منطقة واسعة من أملاكه مكافأة لهم على ما فعلوه .

وكانت هذه نقطة البداية فى تأسيس الدولة العثمانية .

ونرحل مع أحداث التاريخ .. حينما بدأت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وكان أعظم محاولات المسلمين لفتحها على عهد معاوية بن أبى سفيان وسليمان بن عبدالملك .

حيث حوصرت القسطنطينية عام (٣٤هـ = ٦٥٤م) فى عهد عثمان بن عفان .. لكن أسوارها المنيعة حالت دون سقوطها .

وفى عهد قسطنطين الحادى عشر .. الذى حكم عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) بلغت الدولة الرومانية منتهى الضعف والانهيار .. حيث انصرف هو إلى ملذاته الخاصة مهملا الإصلاح مما جعل السلطان العثمانى محمد الفاتح يجتهد فى فتح القسطنطينية .. فأعد العدة وبنى قلعة فى مواجهة أسوار العاصمة الرومانية .

ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم بناء القلعة وأطلق عليها «روملى حصار» .

وبدأ الحصار الفعلى عام (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م) حين طلب محمد الفاتح من الإمبراطور تسليم المدينة للعثمانيين متعهداً باحترام حياة سكانها وممتلكاتهم حقناً للدماء .. ورحمة بالسكان .. لكن الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر رفض ذلك الطلب .

ويصمت المرافق قليلا عن مواصلة الحديث .. فالسيارة تمر الآن بمكان تكسوه الخضرة والهدوء والهواء النقى .. ومظاهر الجمال .

لكن عبدالله أراد أن يقطع هذا الصمت بسؤال :

– أريد أن أعرف ياسيدى كيف كان تخطيط مدينة القسطنطينية فى آخر عهدها الرومانى ؟

أجاب المرافق :

– كانت المدينة مثلثة الشكل .. جانب منها على بحر مرمرة .. وجانب آخر على ميناء القرن الذهبى .. والجانب الثالث يقع فى الجهة الغربية ويصل المدينة بأوربا .

وكان السور الذى يربط بين الجوانب الثلاثة مدعوماً بأبراج طولها ستون قدماً .. وكان

ارتفاع السور نفسه خمسة وعشرين قدمًا تقريبًا .. وكان هناك سور داخلي آخر وبين السورين فضاء كبير .. وكان للسور الخارجي أبواب كثيرة أهمها : باب أدرنة - باب المدفع - الباب العسكري - الباب الذهبي .

واستطاع محمد الفاتح أن يهدم جزءًا من السور الخارجي .. وذلك بواسطة المدافع الضخمة التي كانت معه .. كما حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام مدخل ميناء القرن الذهبي في معركة شديدة عنيفة .

وبعد كرٍ وفرٍ .. واقتحام .. وتجميع للقوى استطاعت القوات العثمانية اقتحام المدينة .. وتدفقت جموع الترك كالسيل الجارف .

كانت فرحة السلطان العثماني لا توصف عندما كان يطوف بالمدينة .

لقد ترجل عن جواده ..وسار مع جنوده في الشارع الذي يؤدي إلى كنيسة آيا صوفيا .

وقصد السلطان أحد أبواب الكنيسة وكان بابًا منيعًا حصينًا .. فوجده مغلقًا .. فلما علم الراهب بمقدم السلطان أمر بفتح الباب على مصراعيه .. وذعر من في الكنيسة .. لكن الفاتح أنهى هذا الذعر بقوله :

- استمروا في صلاتكم .. فلم نأت هنا لإيذائكم .. وسوف نحميكم في دينكم وحياتكم .

وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده على هذا الفتح المبين .. وأمر أحد المؤذنين أن يؤذن للصلاة .. فصعد منبر الكنيسة وأذن للصلاة لأول مرة .. لتصبح كنيسة أيا صوفيا مسجدًا جامعًا من أعظم مساجد الإسلام .. ومازال حتى اليوم يعرف بجامع أيا صوفيا .

كان الإيمان يعمر قلب الفاتح .. فسلك سياسة التسامح والرأفة .. وأمر رجاله وجنوده بحسن معاملة الأسرى .. وفدى عددًا منهم بماله الخاص .

وقد أرسل الفاتح بهذا الفتح إلى بلاد المسلمين فعم الفرح والابتهاج الجميع .

وتعلن الدولة العثمانية اتخاذ القسطنطينية عاصمة لها .. ويطلق عليها إسلام بول - أي

مـدينة الإسـلام .. أو دار الإســلام - ثم حـرفت إلى اسـتـانبـول .. أو إسطنبـول .. أو استامبول .. وكلها ترجمة لكلمة تدل على المكان الذى تتجلى فيه عظمة الإسلام .

وفى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميـلادى سُميت الأستانة باعتبارها مقراً للباب العالى حيث تصدر عنه الفرمانات السلطانيـة .. وتعنى الأستانة بالفارسية : الهدوء والسلام والإسلام .

وكانت السيارة التـى يركبهـا الأصدقـاء قد وصلت إلى قلـب استانبـول .. ويلاحظ عبدالله أن الآثار الموجـودة فى المدينة بعضها بيزنطى رومـانى .. وبعضها الآخر عـثمانى إسلامى .

ويقودنا المرافق إلى مسـجد السلطان أحمد الأول أو مـايسمى بالجامع الأزرق .. لأن جدرانه من القيشانى الأزرق والأخضر .

ويندهش عبدالله لفخامة المسجد وروعة بنائه .. وكثرة مآذنه .

ويلاحظ المرافق هذه الدهشة على وجه عبدالله .. فيلاحقه بقوله :

- أرى أنك مندهش يا عبدالله .

- فعلا فـعلا ياسيدى .. فهـو مسجد فى حـجم القلعة .. ويبدو أنه المسجـد الوحيد الذى له ست مآذن .

ويبتسم المرافق قائلا :

- هذا صـحيح يا عـبدالله .. إنـه مسـجد يدل على مـعجـزة فى البناء .. حـينما أمـر الخليفة بتـشييد ست مآذن للمسـجد أمر بإضافة مـئذنة سابعة للحرم المكى وذلك ليتـميز عن غيره من المساجد.

وفـعلا انـتهى بنـاء المسجـد وأقـام المهندس له ست منارات أو ست مـآذن .. ومـائتين وستين نافذة .. وحوالى أربعمائة ألف قطعة قيشانى أزرق .

ثم يقودهم المرافق إلى هذا الأثر البيزنطى الإسلامى معًا – كنيسة أيا صوفيا – التى دخلها محمد الفاتح وحولّها إلى مسجد .

ويعود بناء هذه الكنيسة إلى عام (٥٣٧م) على أيدى الإمبراطور البيزنطى جوستنيان .. وهى تدل على إعجاز فى البناء أيضًا .. لكنها تحولت الآن للأسف إلى متحف كبير .

وندخل المتحف لنقرأ لوحات جميلة بأسماء النبى ﷺ ولوحات أخرى بأسماء الخلفاء الراشدين .. ونجد القبلة الإسلامية .. والمنبر الإسلامى والنجف الإسلامى .

ويصحبنا المرافق إلى المسجد السُّليمانى – نسبة إلى السلطان سليمان القانونى – وقد تم بناؤه فى عام (٩٦٥هـ = ١٥٥٧م) على أيدى المهندس المعمارى الكبير سنان باشا ، وهو مسجد عظيم تفوق فى بنائه وتصميمه على مسجد أيا صوفيا .. حيث يمتاز بسعته وارتفاعه وتفرده بمجموعة من المآذن التى بلغت حد الروعة فى جمالها وتناسقها .. ويوجد فى نفس المنطقة : مكتبة السليمانية التى يحتفظ فيها بمجموعة نادرة من نسخ المصحف الشريف مدونة على جلد الغزال يعود بعضها إلى زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

ويصحبنا المرافق إلى مساجد أخرى من مساجد استانبول مثل مسجد «بايزيد» ومسجد السلطان سليم .

وفى ضاحية أخرى من استانبول يزور الأصدقاء آثار مسجد قديم يعرف بمسجد أبى أيوب الأنصارى ويسأل عبدالله عن قصة هذا المسجد .. فيقول المرافق :

– قبيل فتح مدينة القسطنطينية بقليل اكتشف الجنود موقع قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى أحد قادة الجيش الإسلامى الذى زحف على المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان وحينما مات أبو أيوب دفن على مقربة من السور حيث بنى مسجد فوق قبره .

وهنا قاطع عبدالله : وهذا يدل على الاهتمام والوفاء للصحابة رضوان الله عليهم

قال المرافق : طبعًا طبعًا .. وأكثر من هذا ياعبد الله أن السلطان العثمانى كان حينما يتولى العرش .. يذهب فى موكب رسمى حافل إلى هذا المسجد حيث يتقلد مهام الحكم ويتسلم السلطنة ويصلى تقربًا إلى الله .



مسجد أيا صوفيا

ويشاهد الأصدقاء بجوار المسجد بقايا السور القديم الذى أقامه قسطنطين .. ويسأل عبدالله مرافقه عن أثر استانبول فى الثقافة الإسلامية ؟

ويجيب المرافق :

- كانت القسطنطينية مركزًا للتراث الرومانى والإغريقى ..

وحينما دخلها الإسلام .. أصبحت استانبول قبلة للعلماء كلما اتسعت ممتلكات الدولة العثمانية .

وقد قام السلطان محمود الثانى بتشجيع العلم والعلماء .. وقام بدوره فى دعوة كثير من العلماء لزيارة استانبول والتحاور حول القضايا الإسلامية .

ولا يمكننا أن ننسى السلطان عبدالحميد الثانى ودعوته إلى فكرة الجامعة الإسلامية .. ودور المفكر الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى التحمس والدعوة لهذه الفكرة .. مما أحدث فى العالم الإسلامى ازدهارًا فكريًا ملحوظًا .

ويتوافد على استانبول علماء الإسلام من كل مكان ليؤكدوا الإيمان بهذه الدعوة من خلال أفكارهم .

لقد كانت استانبول ملتقى للأدب والشعر والفن والدين والفقه .. وكان السلاطين العثمانيون يشجعون ذلك بقدر طاقتهم .

ويتوقف المرافق عن الحديث .. وتسود فترة صمت .. ثم يستأنف حديثه :

- سوف نذهب الآن يا عبد الله لأؤكد لك ما أخبرتك به من تشجيع العلم والعلماء .. ومن الاهتمام بالآثار الإسلامية .

قال عبدالله : إلى أين ياسيدى ؟

قال المرافق : إلى الباب العالى .

قال عبدالله : ماذا ؟ لقد قرأت فى كتب التاريخ أن الباب العالى يرمز إلى قصر الحكم الذى تصدر عنه الدساتير والفرمانات والأوامر السلطانية .



مسجد السليمانية

تبسم المرافق قائلا :

- نعم .. نعم .. إنه قصر الحكم في زمن السلاطين .. ومعناه بالتركية (توب قابو سراى) ، وقد أصبح متحفًا كبيرًا يضم الآثار النفيسة على مدى العصور الإسلامية .

ويصل الأصدقاء إلي (توب قابو سراى) .

ويواصل المرافق شرحه للمتحف : إنه يضم معروضات من جميع البلاد الإسلامية التى كانت تضمها دولة الخلافة العثمانية .

من أين نبدأ زيارة هذا المتحف ؟ إنه شيء محير حقًا !

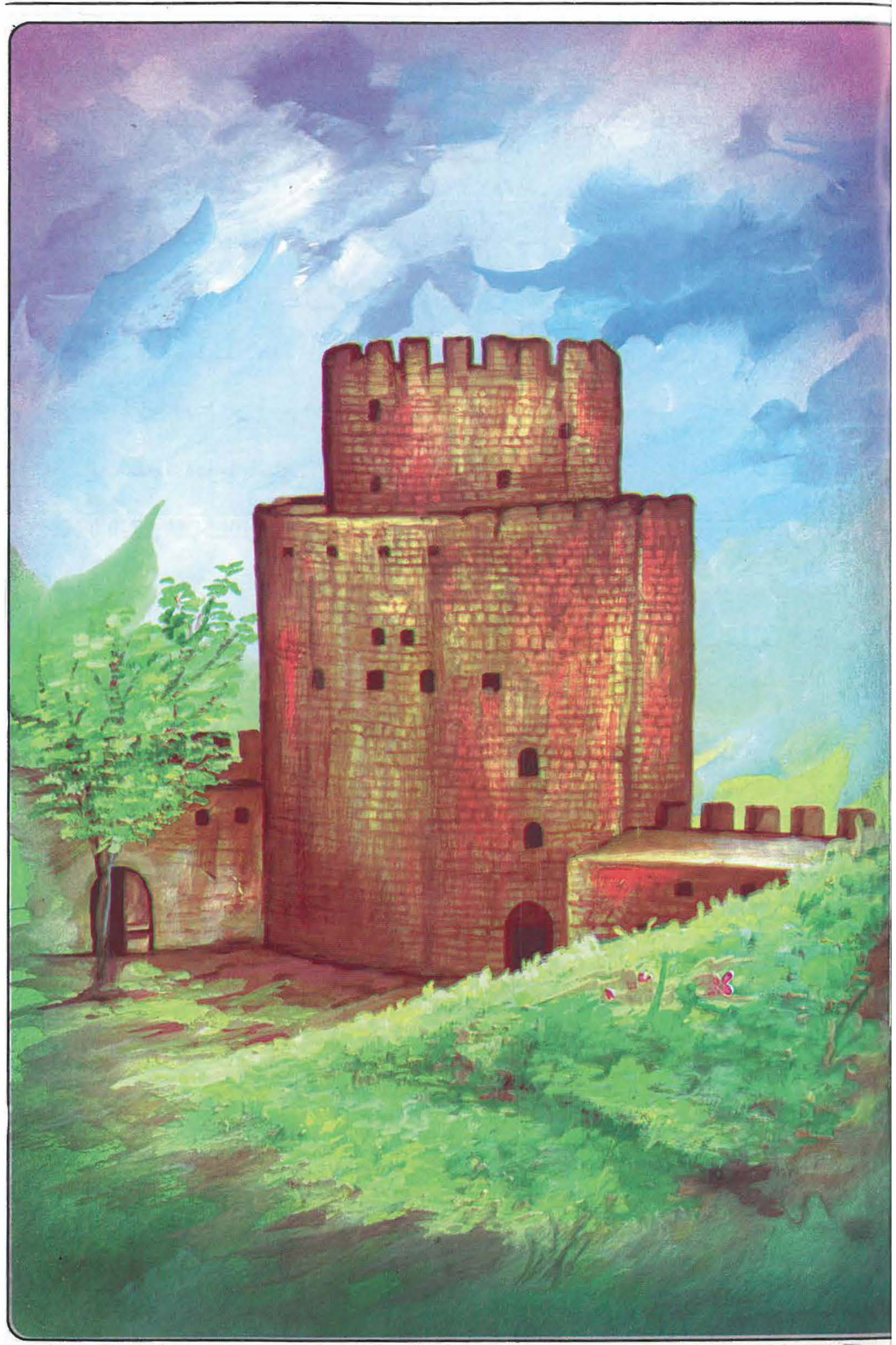
فلنبدأ بالقاعة التى تضم مخلفات السلاطين من آل عثمان : الأزياء العسكرية ..الدروع السيوف .. الأحذية .. والخوذات .. والنياشين .. المباخر .. العروش السلطانية المطعمة بالذهب والعاج والصدف والفيروز .. الأسرة .. الصحاف الصينية الخزفية ..الشمعدانات الساعات وآلاف المخطوطات العربية والإسلامية والفارسية والتركية والهندية تحكى رصيداً ثقافيًا لأمة الإسلام فى جميع العلوم والمعارف .

ويستأنف الأصدقاء رحلتهم داخل المتحف .. ويدخلون الآثار الإسلامية ..

هذا نموذج الكعبة الشريفة وعليها كسوتها ، وهذا هو الإطار الذهبى للحجر الأسود .. وأسلحة الخلفاء الراشدين إلى غير ذلك من الآثار الإسلامية المقدسة من مصاحف وآيات قرآنية ونقوش ومشكوات ، وينتقلون إلى قاعة خاصة تعرض ماسة نادرة .. ويسأل عبدالله عن هذه الماسة فيقول :

- إنها ماسة نادرة فريدة فى العالم كله .. يبلغ وزنها ٨٦ قيراطًا من الماس ..

ويقضى الأصدقاء فى المتحف وقتًا طويلا بين التاريخ والحضارة الإسلامية .. وكل مايتصل بالدولة العثمانية .. ثم يقوم الأصدقاء بزيارة قلعة (روملى حصار) .. وهذه القلعة هى التى أقامها محمد الفاتح فى مواجهة القسطنطينية .. وتقع على الضفة الأسيوية من المدينة وأخذوا يتمثلون الأحداث التى جرت لفتح وسقوط هذه المدينة الحصينة .



قلعة «روميلى هيزار»

ويعود الأصدقاء إلى الفندق . ويخصص يوم لزيارة المعالم العصرية الجميلة التى تشتهر بها استانبول ومنها الجسر المعلق بين قارتى آسيا وأوربا ويعرف باسم غالاتا .

وقد أقيم هذا الجسر عام (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م) على دعامتين فقط .. فى كلا الشطين ويرتفع عن الماء بمسافة ٤٥ مترًا تسمح بمرور أى حجم من السفن والبواخر .

ويأخذ الأصدقاء باخرة تنقلهم إلى مجموعة الجزر عبر البوسفور ، ويتجمع الأصدقاء على جانب الباخرة ليشاهدوا أحد المساجد الإسلامية ذات الطراز المعمارى المتميز ويسأل أحدهم مرافق الفوج عن اسم هذا المسجد فيرد عليه قائلا :

– إنه مسجد «دولما باشا» .

وفى الطريق شاهد الأصدقاء جزر كثيرة وكان من أهمها : جزيرة (بيوك أضا) وهى أكبر الجزر .. ويلاحظ الأصدقاء أنها خالية تمامًا من التلوث .. ومن السيارات .. وينتقل الناس فيها فى مركبات تجرها الخيول .. بحيث أصبحت مكانًا سياحيًا جميلا مملوءًا بالخضرة .. والمناظر الخلابة .

وكان اليوم الأخير مخصصًا لزيارة مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية .. فى استانبول .. وهذا المركز تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى .

ويشمل المركز مكتبة تحتوى على عدد كبير من المراجع حول الثقافة الإسلامية .. بأكثر من عشرين لغة .. كما يشمل وحدة حديثة للكمبيوتر للتوثيق والإعلام .

ويشهد الأصدقاء علماء الإسلام يفدون إلى هذا المركز من كل مكان ويتبادلون الآراء والأبحاث العلمية والأكاديمية التى تؤكد الثقافة الإسلامية ودورها في العالم المعاصر .. كما يصدر المركز مجلة فصلية حول تاريخ البلاد الإسلامية والجامعات والمتاحف فى كل مكان إسلامى .

ويمتلىء الأصدقاء بالسعادة الغامرة .. لهذا الدور الذى تقوم به استانبول من أجل نشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى .



مسجد دولما باشا على شاطئ البوسفور

هذه المدينة

جميلةٌ تهدى إلى العيون
منارة الإيمان واليقين
مدينة الإسلام والحصون
طيبةُ الثمار .. والغصون
ليس لها فى حسنها قرين
أعطت إلى الإسلام باليمين
علمًا .. فكان عقدَها الثمين
وكان فيها حبلَها المتين
وكان فيها قلبَها المصون
إن غابت الشمس عن العيون
لاحت بوجه ناصع الجبين
تفاخر الدنيا بصدق اليقين

رقم الإيداع : ٩٣/١٠٨٩٩
الترقيم الدولى : 977-261-286-9

كان الإسلام -ولايزال- ضوءاً ساطعاً بالهدى والعلم والحضارة والتقدم. وحيثما كان يهبط هذا الضوء تُقام المآذن ويرتفع صوت الإيمان بالتهليل والتكبير ويرتفع الحق شامخاً فوق الباطل.

وهذه بعض المدائن الإسلامية التى لعبت دوراً تاريخيا فى انتشار الإسلام وتأكيد قيمه وإعلاء كلمته نقدمها اليوم إلى الناشئة لتتعرّف هذه الملامح الخالدة لحضارة الإسلام.

اقرأ فى هذه السلسلة:

١ - مكة المكرمة	٥ - القيروان
٢ - المدينة المنورة	٦ - سراييفو
٣ - القدس	٧ - استانبول
٤ - الفسطاط	٨ - غرناطة

سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص.ب: ٤٢٥ الدقى
ت: ٣٣٧٩٧٥٢ -٣٣٥٣٧١١ -٣٣٥٣٧١٢ -٣٤٩٤١٣٩ فاكس: ٣٤٨٠٢٩٩